إدوارد سعيد.. التلقي العربي للاستشراق

الحلقة السابعة

هشام علي

قراءة الاستشراق: المراجعة وإعادة القراءة

في نقد وحقيقة، يقول رولان بارت: "إن الأثر لا يتأبد، لأنه أرسى معنى وحيداً، ولكنه كذلك لأنه يوحي بدلالات مختلفة لإنسان واحد، يتكلم دائما اللغة الرمزية ذاتها عبر أزمنة متعددة، فالأثر يقترح والإنسان يتصرف".

والقراءة هي محاورة النص، كما يقول بول ريكو، ووفقاً لهذه الرؤية الحوارية التي تتضمنها القراءة، وعلاقتها بالأزمنة المتغيرة، فإننا نستأنف مراجعة القراءات العربية للاستشراق، وكنّا قد تعرضنا لبعض القراءات المبكرة والمتميزة لكتاب الاستشراق، التي كانت ذات سمات إيديولوجية وسياسية غالبة، وكانت في معظمها معارضة للفكر النقدي الذي جاء به كتاب الاستشراق، أو القراءات المناصرة والمؤيدة للكتاب، فقد كانت ذات اتجاهات أصولية، وهي تكشف عن قراءة إساءة فهم مقصودة، لنقد الاستشراق ونقد الغرب، بحيث تصب نتائج هذا الكتاب النقدي العلماني في صالح التيارات الأصولية، التي تختلف مع فكر إدوارد سعيد ومنهجه.

ونلاحظ أن القراءة المبكرة للاستشراق، أوقعت الكتاب في شرك حقيقي، وحاصرته بين اتجاهين: قراءة ماركسية إيديولوجية: جردت الكتاب من العلمية والتاريخية، و أوقعته في حبائل ميتافيزيقا الاستشراق المعكوس.

وقراءات قومية إسلاموية: رأت في الاستشراق دفاعاً عن العروبة والإسلام وانتصاراً للشرق ضد الغرب.

وقد نبّه سعيد إلى مخاطر هكذا قراءة، فهو يقول في "هجرة النظريات": عند قراءة نص ما، يتعين أن يفتح المرء هذا النص على ما اندرج فيه وما استبُعد منه، فكل عمل ثقافي عبارة عن رؤية للحظة ما، لذا يجب أن نختبر هذه الرؤية جنباً إلى جنب مع المراجعات المختلفة، التي أثارتها هذه الرؤية لاحقا".

وسوف نحاول هنا قراءة المراجعات المختلفة للاستشراق، التي قام بها المثقفون العرب في فترات لاحقة، أعقبت المرحلة المبكرة من تلقي الاستشراق، عقب صدوره باللغة العربية، وكانت بعض هذه المراجعات تعتمد النص الإنجليزي أو الفرنسي، وهو ما ينفي سوء الفهم للنص العربي المترجم، وسوف نعود لاحقاً لموضوع الترجمة العربية للكتاب، ومحاولة المترجم تأسيس نص عربي لنقد الاستشراق، وليس الاقتصار على الترجمة بالصورة المتعارف عليها.

وربما أن السؤال المتجدد دائماً، هو مقدار التغير في تلقي إدوارد سعيد والاستشراق؛ هل كان الاستقبال المبكر للكتاب يحمل شيئاً من الدهشة والانبهار لدى البعض، وفي المقابل كان هناك رفض للكتاب من قبل آخرين، بينما كانت شهرة الكتاب والضجة التي أثارها عند صدوره في أمريكا، هي الدافع للاهتمام بالكتاب في صفوف المثقفين العرب، وليس محتوى الكتاب والقضايا الخطيرة التي ناقشها، وهو ما دفع بعض المثقفين للمشاركة في النقاش، دون أن يكونوا قد اطلعوا عليه.

وهذه قيمة مضافة للكتاب، فهذه الظاهرة تشير إلى أن الكتاب كان موضوعاً راهناً بالنسبة للمثقفين والثقافة العربية في تلك المرحلة من أوائل الثمانينات، إذا أن الثقافة العربية قد أحست بضرورة الخروج من الثنائيات المكرورة، والحاجة إلى ولادة فكر نقدي لموضوع الشرق والغرب، ولعل الإشكالية تكمن في العجز عن القراءة، والفشل في تفكيك خطاب الاستشراق بصورة متحررة من جدل السيد والعبد، ومن عقدة الغرب المهيمن على اتجاه الحداثة العربية، الذي يحدد لنا معايير الحداثة ويسطّر علاقتنا بتراثنا.

وقبل أن نبدأ بتفتّيش القراءات النقدية للاستشراق، التي أعقبت مرحلة الصدمة الأولي أو ما يمكن تسميتها بالقراءات المبكرة، سوف نتعرض لدراسة قام بها الباحث الفرنسي آلان روسيون، وهو ينتمي للمركز القومي للبحوث العلمية الفرنسية، ويعمل في فرعه في مصر، حيث قضى سنوات عديدة، وكان على اطلاع دائم بالمناقشات الدائرة حول الاستشراق، في الساحة الثقافية العربية، وقد نشر دراسته في 1990م.

يتساءل روسيون كيف يمكن لتدخل إدوارد سعيد أن يساعدهم (أي الشرقيين) على اتخاذ موقف واضح من هذه المعرفة الاستشراقية ذاتها، ومن تاريخهم الخاص بشكل عام، ثم من التاريخ الاستعماري بشكل خاص؟، ويرى الآن روسيون أن المثقفين العرب اهتموا بكتاب الاستشراق حال صدوره، لكنهم أخذوا يتراجعون بعد ذلك، وأن أطروحات إدوارد سعيد تعرضت للنقد والتفنيد السريع ولم تستطع أن تصمد طويلاً:

"في البداية كان كتاب إدوارد سعيد يشبه الرعد القاصف، الذي اخترق سماء أقل ما يقال فيها أنها كانت صافية، وبعد ذلك كانت المناقشة التي أثارها في الساحة الثقافية العربية، وقد تعرضت لتحول مهم: ففي البداية استقبلت أطروحاته "كالوحي"، ولكن الكثير من المثقفين العرب سرعان ما اتخذوا مسافة نقدية عنها، وأعادوا تقييمها، يحصل ذلك كما لو أن سعيد قد مشى في تعرية الاستشراق مسافة أكثر من اللزوم، وتجاوز كل الحدود، إلى درجة أنه أصبح يهدد بتدمير أسس كل معرفة علمية عن الشرق"(1).

هذه النتيجة التي خلص إليها الباحث الفرنسي، لا تقتصر على كتاب الاستشراق وموقعة في الساحة الثقافية العربية، وهي لا ترتبط بظهوره الكاسح الذي ما لبث أن خمد، إنها متعلقة بصفة الآنية، وانعدم الاستمرار في الثقافة العربية، وهي صفة يمكن أن نطلق عليهما اسم "العبور" دون أثر، وربما لهذا السبب نلاحظ غياب التراكم الثقافي وغياب الفكر النقدي، الذي يتأسس على مراجعة وقراءة التجارب الفكرية السابقة، وتحديد قطيعة معرفية معها.

إن الخريطة الثقافية العربية تبدو متناثرة ومفككة، جزر فكرية معزولة، سرعان ما تتعرض للنسيان؛ نذكر على سبيل المثال: الفلسفة الوجودية، وفيلسوفها الرمزي جان بول سارتر، الذي كان يحتل موقع الصدارة في ثقافتنا في الخمسينات والستينات من القرن الماضي. اختفي سارتر وفلسفته الوجودية، واختفت أثارها العربية في الأدب والفلسفة، في أعقاب هزيمة 1967م، ولم تظهر أية دراسة عربية تبحث ظهور وسقوط الوجودية في الثقافة العربية.

وهناك ظواهر كثيرة أخرى برزت واختفت في الثقافة العربية، مثل البنيوية والفرويدية السريالية وغيرها.

نلاحظ هنا أن آلان روسيون لم يكن موفقاً في رصد تلتقي الاستشراق في الساحة الثقافية العربية، باعتماده على مقياس الظهور والاختفاء الذي تحدث عنه، وربما أن الباحث قد غير رأيه هذا، لاسيما بعد أن صدر كتاب إدوارد سعيد "الثقافة والإمبريالية" في 1994م، الذي أعاد مناقشة الاستشراق إلى الساحة الثقافية العربية، معززة بمفاهيم الهيمنة والسلطة والمعرفة، وعلاقات الأمة والسرد.

وتمت قراءة الاستشراق كأحد السرديات الغربية الكبرى، والتي ينبغي على المثقفين العرب تفكيكها ونقدها، والكشف عن الخطاب الاستشراقي ضمن الرؤية التحررية الشاملة، التي تسعى إلى تصفية استعمار العقل حسب ما يدعو فرانز فانون.

وقد رفض آلان روسيون هذا الربط بين التحرر ونقد الاستشراق، وذلك في حديثه عن أنور عبد الملك، الذي مثل المحطة الأولى في سكة نقد الاستشراق.

ظهر نص أنور عبد الملك ضد الاستشراق في عز فترة زوال الاستعمار، ويعلق روسيون على عبد الملك، قائلاً: "وكان الباحث المصري قد اعتقد عندئذ بإمكانية القضاء على الاستشراق نهائياً، فالعالم الثالث كان في أوج صعوده، وكذلك حركات التحرر الوطني في العالم الثالث، ولكن بما أن الاستشراق لم يمت، فإن انبعاث المناقشة من جديد قد طرح – بشكل لا مندوحة عنه – مسألة إقامة التمفصل أو العلاقة بين هاتين اللحظتين"(2).

ويستخلص آلان روسيون، أن الاستعمار زال ولكن الاستشراق ظل باقياً، على عكس ما كان يعتقد أنور عبد الملك، الذي اعتبر الاستشراق ظاهرة تاريخية يستطيع تشخيص نهايتها، وحيث أن نهاية الاستشراق لم تتحقق، فإن هذا يكشف زيف نقد الاستشراق وقدرة الاستشراق على الانبعاث والتجدد، بيد أن هذه النتيجة لم تكن كما تخيلها روسيون، فقد تحدث جاك بيرك ومكسيم رودنسون عن نهاية الاستشراق، واعتبرهما كثير من الباحثين الغربيين المهتمين بالعالم العربي، أخر العلماء المتبحرين، أو أخر المستشرقين المحترمين، بالمعني الذي كان معروفاً سابقاً.

فقد تشظى الخطاب الاستشراقي إلى كثرة من الخطابات المتخصصة: "كان رودنسون وبارك كل منهما بطريقته الخاصة، أخر العلماء المتبحرين، الذين تناولوا كل أصناف المعارف في دراسة المجتمعات العربية؛ (التاريخ والفيلولوجيا وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا)، وليس لرودنسون ولا لبارك من خلفاء بعدهم"(3).

هكذا تقول الباحثة الفرنسية إليزابيث لونفنس، الباحثة في المركز الوطني للبحث العلمي، وهو نفس المركز الذي ينتمي إليه آلان روسيون. وهي تبحث الموضوع في تفاصيله المتعددة، وذلك في بحث بعنوان "في معضلة الباحث ووضع البحث في العلوم الاجتماعية حول العالم العربي في الجامعة الفرنسية".

إن الباحثة تشير إلى ظهور جيل جديد من الباحثين الفرنسيين، في أعقاب ثورة 1968م، فهم لم يعودوا يمثلون نخبة من أصحاب الامتياز، لقد صاروا من أبناء الطبقات الوسطى، يطالبون بموقعهم في المعرفة والنقد والفعل.

وكان سارتر وهنري لوفيفر، ومن بعدهم، التوسير وفوكو ولا كان وليفي شتراوس، منارات الحياة الفكرية والجامعة.

وتضيف الباحثة أن أقسام علم الاجتماع، صارت مناطق نفوذ لأقصى اليسار، وكانت دراسات الآخر تعني الانطلاق من ذواتنا نحن، والبحث عن معنى إنسانيتنا في هذا العالم، الذي فقدنا فيه معرفتنا بذاتنا وبالآخر، الذي يسائل فينا إنسانيتنا المشتركة.

كما تشير الباحثة إلى التغيير الذي حدث في المجتمعات العربية، بعد تحقيق استقلالها عن الاستعمار، وإلى المثقفين العرب الذين تمثلوا قيم الغرب، ولم يعودوا يقفون عند حدود الدهشة والإعجاب بالغرب.

هذه العوامل كلها تشير إلى التحول في ميدان دراسات الاستشراق، وظهور جيل من الباحثين الاجتماعيين الفرنسيين، الذين هجروا مدرسة الاستشراق، وأعلنوا نهاية الاستشراق، والحاجة إلى فكر جديد ومعرفة مختلفة لدراسة الذات والآخر.

• إدوارد سعيد

وقد خلصت إليزابيث لونفنس إلى القول: "إن الخطاب الغربي حول المجتمعات العربية يتأثر بالضرورة بتطور المجتمعات العربية، وبتطور المجتمعات الغربية على حد سواء، ويغازلنا القول بأن الاستشراق الكلاسيكي قد زال من الوجود مع زوال موضوعة، أي الاستشراق بما هو معرفة أنتجتها "ثقافة علماء" حول "ثقافة علماء أخرى" مختلفة تمام الاختلاف، ضمن علاقة غير متكافئة، ولكنها علاقة تغيرت حقا بحكم الكفاحات من أجل الاستقلال، ولكن بقطع النظر عن ذلك، وإذا أردنا التعمق: أليس تطور المجتمعات والثقافات هنا وهناك هو الذي دمر أسس الخطاب الاستشراقي؟ فأمام أزمة الثقافة العربية الإسلامية الكلاسيكية، وما يشترطه تجديدها من مد لجسور التواصل والدمج مع الثقافة المسماة بـ"الغربية"، جاء رجع الصدى من الغرب متمثلا في انقلاب مؤسساته الجامعية، تلك التي كانت تنتج فيها هذه المعرفة حول الآخر، ولكن عوضاً عن كبار العلماء بالأمس، حلت جماعة كثيرة من الباحثين والجامعيين، الذين هم أقل شهرة من الأولين، ولكن أعمالهم العلمية ليست باللزوم أقل قيمة"(4).

إن كلام الباحثة عن نهاية الاستشراق وعن ضرورة تشظي الخطاب الاستشراق، ليتحول من علم واسع غير محدد، إلى تخصصات دقيقة في كل فرع من فروع المعارف الأكاديمية، هو نفس الكلام الذي دعا إليه د/ أنور عبد الملك، في مقالة الهام "استشراق في أزمة" الذي نشره في مجلة ديوجين في 1963م.

وقد ذكر أن الاستشراق ليس علما معروفا في جامعات الغرب، ولكنه مجموعة علوم، تمتد من الجغرافيا والتاريخ واللغة، إلى الاجتماع والأنثروبولوجيا والانطولوجيا، ولا يكون للمستشرق أي تخصص في العلوم المذكورة، ولكنه يقوم باستخدامها في دراسته للمجتمعات الشرقية، معتمداً على معرفته بلغة بلاد الشرق، وفي هذا الخليط المعرفي المتهافت تكمن أزمة الاستشراق، وضعف الخطاب الاستشراقي.

هكذا نجد أن حركة نقد الاستشراق قد تحركت في سياق تحول ثقافي وفلسفي شهده الغرب، وكان لثورة الطلاب في 1968م، أثر في تغيير المناهج الدراسية، وتحرير الأفكار، وإعادة التنوير العقلاني إلى روح الثقافة الغربية، التي كانت تعاني من التقليد واللاعقلانية.

ونشير هنا إلى أن أحد نقاد إدوارد سعيد، كان قد ذكر ثورة 1968م، وتداعياتها الفكرية، وأنها كانت إحدى مكونات فكر نقد الاستشراق الذي جاء به إدوارد سعيد.

ولعل ما تميز به نقد إدوارد سعيد للاستشراق، هو أنه قام بإنجاز جردة نقدية لهذا الفكر، مستفيداً من السياق العام لنقد الثقافة الغربية، الذي قام به فلاسفة ومفكرون أمثال؛ ميشال فوكو وجاك ديريدا ولاكان وكلود ليفي شتراوس وغرامشي، وغيرهم من المفكرين الذين قاموا بمراجعة نقدية للفلسفة، ودعوا إلى التحرر من المركزية الغربية، ومن الهيمنة الثقافية، إلاّ أنهم لم يتعرضوا لنقد فكر الاستشراق، الذي يعتبر نتاجاً لتلك الثقافة الغربية، التي قاموا بتفكيكها ونقدها، ليس لاتفاقهم مع هذا الفكر، ولكن لأن خطاب الاستشراق كان هامشياً بالنسبة للثقافة الغربية، وهو خارج سياق هذه الثقافات، وخارج مؤسساتها العلمية، وقد أشار أنور عبد الملك إلى هذه المسالة، في مقاله المذكور عن أزمة الاستشراق.

نعود إلى آلان روسيون لاستكمال قراءته للتلقي العربي لكتاب الاستشراق، فقد رصد ثلاثة اتجاهات أو مجموعات في الساحة الثقافية العربية، هي على النحو التالي:

مجموعة مقالات مجلة "المستقبل العربي" ومركز دراسات الوحدة العربية، وهي تسعى إلى توحيد الجهود المبعثرة للمثقفين العرب، وبعث المثل العليا للعروبة.

مجموعة ثانية من النصوص التي صدرت في مجلة "دراسات الشرق الأوسط"، وهي لمثقفين عرب مقيمين في أمريكا، ويعملون في جامعاتها، وكانت تدعو إلى مكافحة الاستشراق، واستبداله بالدراسات العلمية التقدمية، وهذه المجموعة مؤيدة لإدوارد سعيد، وسابقة له في بعض الأحيان.

أما المجموعة الثالثة فقد اختارها لكل من صادق جلال العظم، الذي كتب رداً فعليا على إدوارد سعيد – وقد تعرضنا له في القسم الأول من المقال – ودراسة عبد الله العروي لأعمال المستشرق "غرونباوم"، وفيها يميز بين الجانب المعرفي الصرف فيها، وبين الأحكام الإيديولوجية الاستشراقية.

أما العمل الثالث فقد كان لعبد الكبير الخطيبي، الذي يوجه نقداً عنيفاً لجاك بيرك والاستشراق الجديد الذي يمثله، وهو ما يعتبره الخطيبي ممالئاً للاتجاه التقليدي المهيمن في الجهة الإسلامية.

مخدّةٌ.. لمنتهى الأسحار

محمَّد المهدِّي

لا ريب في الجبل البعيد وناره
وبكامل الرؤيا لدى أسراره
نصف المكان مُمَكّنٌ من نصفه
قلباً تمكن من مدى أسفاره
مرت به آثاره.. وقفتْ على
أثرٍ هو الممتد من آثاره
ولأن خلف السُّور بُعدٌ مُطلقٌ
ما أقرب الأبعاد من أسواره
وكثيرةٌ أسماءُ إطلالاته
حَفِظَتْ نداءاتي رؤى أبصاره
وعلى ذهول الذاهلين تقودني
إطلالةٌ مجنونةٌ بمداره
وهناك يتّسعُ المساءُ كأنّما
جسدُ التّشظّي كان مُهلَ نهاره
وكعادتي حتى وإن ضاق الصدى
لا أرتدي إلاّ ضلالَ إزاره
تتوسد المعنى مواقيتي ولي
منه مخدّةُ مُنتهى أسحاره
ولأن لي عهداً من السهد الذي
لا ينتهي؛ أنا خطوةٌ لمساره
وأنا دليلي في وصول دليله
وأنا وصولي في المكوث لداره
لي منه في منفى الحنين بطاقةٌ
وله اعترافي شاعراً بجواره
أنا واحدٌ من أهله, من آله
أنا من عشيرته ومن أعشاره
أنا أُمّةٌ محبوبةٌ في قلبه
أنا كُلُّ قلبٍ كان في أنصاره
وهو المكانةُ والمكانُ, وخافقيْ
مُتمكّنٌ بحرائه وبغاره
لي غارةٌ كونيّةٌ, ومجرّةٌ
روحيّةٌ تحيا على أقماره
وله بقيّةُ غربتي وقصيدةٌ
محفوفةٌ, وهوىً شهيدُ قراره

******

إصدارات

التسلح ونزع السلاح

صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت الكتاب السنوي 2012 "التسلّح ونزع السلاح والأمن الدولي".

وهو الإصدار الثالث والأربعون من كتاب سيبري السنوي، وفيه الخلاصة السنوية الشاملة عن التطورات الحاصلة في الأمن الدولي والتسلّح ونزع السلاح للعام 2012؛

فهو يستعرض تطور الصراعات والعنف المسلح في العقد الماضي، والجغرافيا السياسية لعمليات السلام، والاتجاهات في الإنفاق العسكري، وإنتاج الأسلحة والاتّجار بها، والترسانات النووية، والتطورات الحديثة في تحديد أسلحة الدمار الشامل والأسلحة التقليدية ونزعها، وما يتصل بها من أنظمة الإيصال والتقانات.

وللثورات التي وقعت في الوطن العربي مكان من الدراسة في سيبري لهذا العام؛ فقد اشتعلت هذه الثورات – كما جاء في الكتاب – بسبب انتشار أنظمة غير تمثيلية، ليس لديها أيٌّ سجل لحلّ المشاكل التي تواجهها شعوبها. وقد كشف استخدام أشكال الاتصالات الحديثة والتقليدية هشاشة أنظمة الحكم الفردي، وحفّز على مزيد من العمل.

ويتضّمن كتاب سيبري لهذا العام، دليل السلام العالمي، الذي يهدف إلى تقصّي السلام الإيجابي. الذي لحظ التدهور في مفاهيم الإجرام في المجتمع العالمي، وتحسّن مقياس الإرهاب السياسي، وحصول مكاسب في العديد من مؤشرات العسكرة، مع انكماش موازنات الدفاع.

ويسرّ مركز دراسات الوحدة العربية أن يقّدم الطبعة العربية لكتاب سيبري 2012، إلى القرّاء والباحثين العرب، مشفوعة بأمانة الترجمة ودقتها، عن النص الإنكليزي (الأصل).

يقع الكتاب في 736 صفحة.

فائدة ما هو غير مفيد

تعيش الإنسانية في الحقبة الراهنة، إحدى فتراتها الأكثر مادية. إذ يسود مبدأ الكسب والفائدة، في بيئة معايير أهمية أي عمل. لكن الأستاذ الجامعي والمؤرخ الإيطالي المتخصص في عصر النهضة الأوروبي، نوشيو اوردين، لديه رأي آخر. وهو يكرّس كتابه الأخير، للبحث في "فائدة ما هو غير مفيد"، كما جاء في عنوانه. ويعتمد فيه على نص بالعنوان نفسه، صدر قبل عقود، للأميركي ابراهام فليكسنر.

يحدد المؤلف المعنى القاموسي لـ"المفيد"، في أنه ما يكون استخدامه يصب في مصلحة أحدهم أو مصلحة كثيرين أو للجميع. وذلك، أن ما هو مفيد يمكن أن يكون ما يستجيب بوجه ما، أو يلبي رغبة. وبالتالي "ما هو غير مفيد" ربما لا يكون موجوداً بالأصل. ونقرأ: إن غير المفيد هو غير موجود. فإذا كنت قد قررت عمل شيء غير مفيد بالمعنى الشائع للتعبير- . فإن ذلك سيكون مفيداً، من حيث أنه يخدم على الأقل، ما يتماشى مع قراري".

ويذهب المؤلف في النهج ذاته من التفكير، وصولاً إلى القول إن مفهوم "ما هو مفيد" و"ما هو غير مفيد" يرتبط بشكل وثيق بالمعنى الذي يعطيه الإنسان لحياته. وبالتالي، من الخطير تصنيف الأشياء والسلوكيات بين فئتين: المفيد وغير المفيد وبالتالي إصدار أحكام قاطعة، تبعاً لهما.

يقدم نوشيو اوردين، سلسلة من البراهين على فائدة ما هو غير مفيد، وعدم فائدة ما هو مفيد. والبراهين التي يقدمها مأخوذة من تأملات فلاسفة كبار، من أمثال أفلاطون وارسطو ومونتين وجوردانو برونو وتيومن وهايدغر وغيرهم. وكذلك من إبداعات كتّاب كبار، من وزن اوفيد وداني وسرفانتس وديكنز وغارسيا ماركيز وأوجين يونسكو، وكُثر آخرين.

ومن خلال كم كبير من الأمثلة، يصل المؤلف إلى نتيجةً مفادها، أن الشبق للتملك وتقديس مفهوم الفائدة، يؤديان إلى جفاف حقيقي في الروح، ويعرّضان للخطر، المدارس والجامعات والفنون والإبداع، وفوق هذا كله، يسيئان إلى بعض القيم الأساسية المتعلّقة بالكرامة الإنسانية وبالحب والحقيقة.

ذلك أن المدارس والجامعات والإبداع، في الفن والأدب والموسيقى، وغير هذا من المشارب الفنية، لا تولي اهتمامها للفائدة بالمعنى المادي. ثم إن العلوم نفسها، خاصة المجرّدة منها، مثل الرياضيات، لا تصب في خانة الفائدة المادية المباشرة.

وفي رأس قائمة ما يمكن إدراجه تحت عنوان "فائدة ما هو غير مفيد"، يحدد نوشيو اوردين "العلوم الإنسانية". فهذا الحقل من العلوم، جرى في السنوات الأخيرة، تهميشه إلى درجة كبيرة على الصعيد العالمي. وليست قليلة هي الحالات التي استبعدت فيها العلوم الإنسانية من البرامج التعليمية، كما يشير المؤلف. وذلك إضافة إلى أن الكثير من الدول "وضعت العلوم الإنسانية على الرف"، واستبعدتها الهيئات الخاصة القادرة على تمويلها، من قائمة اهتماماتها.

ويبين المؤلف أن الحجة في ذلك كله، أن هذه العلوم الإنسانية لا يمكنها أن تقدم مبرراً حقيقياً لصرف الأموال عليها، باعتبارها "ميادين غير مفيدة". وهذا بالتحديد والدقّة كون أنها "لا تعطي مكاسب مباشرة".

ومن الأفكار التي يؤكد عليها مؤلف الكتاب، إلحاحه على أن العلم احتل ويحتلّ دائماً، موقعاً مهماً في المعركة "ضد قوانين السوق"، التي ترفع شعار الربح بكل السبل وتدغدغ لدى كل من يخضعون لها، شهية الكسب.

ولكن مثل هذا التركيز على السوق والمادة والربح، يعني تناسي حقيقة ثابتة، مفادها أن العديد من الأعمال العلمية بدت في فترة الخوض فيها، بمثابة نشاط غير مفيد، ومن دون أي هدف عملي مباشر. لكن تكشّف مع مرور الزمن، أنها لم تكن عنصراً أساسياً في سيرة التقدّم الإنساني فحسب، ولكنها في "غاية الفائدة" من حيث الثمرات التكنولوجية التي مثّلت تطبيقاتها العملية. ولا يخفى على أحد، كما يشير المؤلف، أن الاختراعات الكبرى التي حققتها الإنسانية خلال مسيرتها الطويلة هي، في ما هو أساسي منها، نتاج ما فكّرت به عقول أناس، كانوا بعيدين كل البعد عن أية إرادة تسعى للكسب. ولا يتردد المؤلف في تأكيد أن علماء كباراً من أمثال نيوتن وانشتاين وغاليلي غاليليو لم يكونوا مأخوذين أبداً بما هو مربح وما هو مفيد.

المؤلف في سطور

يعمل نوشيو اوردين، أستاذاً للأدب الإيطالي في جامعة كالابريا في إيطاليا. وهو أحد المتخصصين في تاريخ وأدب عصر النهضة الأوروبي. من مؤلفاته: عتبة الظل: الأدب والفلسفة والرسم لدى جوردانو برونو، الأدب والفلسفة والدبلوماسية في عصر النهضة.

الكتاب: فائدة ما هو غير مفيد
تأليف: نوشيو اوردين
الناشر: بيل ليتر- باريس- 2013
الصفحات: 158 صفحة
القطع: الصغير

نظريات في الرمز

حديثاً عن المنظمة العربية ببيروت للترجمة كتاب: "نظريات في الرمز" تأليف تزفيتان تودوروف، ترجمة الدكتور محمد الزكراوي.

نظريات في الرمز تحليلٌ نقدي لنظريات أرسطو، القديس أوغسطين، كوندياك، ديدرو، غوته، فرويد، ليفي برول، سوسور، جاكوبسون وغيرهم.

يدور الكلام في هذا الكتاب على الدلائليات؛ أو قل: على مجموعة من الفروع العلمية كانت في الماضي تتوزع في ما بينها مجال الدليل والرمز.

ويبقى من التاريخ، الأزمة، وبها تقابل الكلاسيكية الرومنسية، ومن الدلائليات وحدة الدليل والرمز ولعلها وحدة مضللة.

وعبر دراستهما يتأكد ما يشبه الطريق الثالث: تصور للخلاف غير المشاد به للتعدد والنمطية.

• تزفيتان تودوروف: ولد في صوفيا عام 1939 وجاء إلى باريس ليكمل دراسته، حيث حصل على شهادة الدكتوراه. عمل باحثاً منذ 1968 في CNRS، وشغل مركز مدير أبحاث. يعتبر تودوروف من كبار المنظرين في مجال الأدب، ويعود له الفضل في ترجمة أعمال الشكليين الروس.

• محمد الزكراوي: مترجم وباحث من المغرب. من ترجماته: النقد الأدبي المعاصر: مناهج، اتجاهات، قضايا، للكاتبة الفرنسية آن موريل (Anne Maurel).

يقع الكتاب في 543 صفحة.